جبران الخالد!

أُعجب جبران بفلسفة نيتشه وآرائه وأخيلته، وظهرت شخصيته الثوروية خصوصاً في كتابه «الأرواح المتمردة».

يقول ان الحب هو الله، وهو لم «يقتل» الله كما زعم البعض، اسوة بنيتشه الذي أعلن فقط ان إله الضعف واللامبالاة لا أثر له قط. وأود، في هذه العجالة، أن أبدي بعض الملاحظات حول منحى جبران الفكري والروحي:

١- أساء الكثيرون إلى جبران وكأنهم شاءوا من واضع «الأجنحة المتكسرة» و«النبي»، أن يكون إلهاً في السماء، لا بشراً في هذه الدنيا.

٢- من الوجهة الدينية، زعم بعضهم ان جبران قد أنكر جميع الديانات، مع انه لم يُنكر في أيّ من آثاره، أيّ دين من الأديان، إلّا انه انتقد تلك القشور، التي أحاطها الإنسان بالدين، وانتقد أيضاً بعض رجال دين عصره.

٣- يردّ جبران نفسه، في آثاره البديعة، على بعض ما كتبه عنه المتهافتون، عندما يقول ما فحواه: تستطيع أن تدين الآخرين بحسب درجة معرفتك، فهل لك أن تقول لي مَن هو المجرم بيننا ومن هو البريء؟

٤- تأثّر جبران، فضلاً عن نيتشه، بالكتاب المقدّس بالذات، مبنى ومعنى، وكذلك بالإمام علي بن أبي طالب. دخل مدرسة الحكمة ثم قصد باريس واتصل فيها بمعاهد الرسم. لم يكن «ربّ نفسه» كما ادّعى بعضهم ولم يتّبع، في دقة، مذهب التقمص.

لا شك في أنه ينكر السلطة في الأمور الدينية وفي الأمور المدنية وفي الأسرة البشرية. ولكنّ كل هذا من صميم الاتجاه العلماني أو المدني الذي تقول به المجتمعات المتقدّمة، وهو اتجاه ينبثق، في نهاية المطاف، من جوهر الديانات السماوية ولا سيما منها المسيحية والإسلام. انه مفكر كبير بل رؤيوي استشرافي رائد ولو سيطرت عليه العاطفة والوجدان والضمير الحي، فلم يلتزم حدود التقليد الأعمى غير المتنوّر. تجلّى كاتباً ومصوّراً على السواء، وكان شخصياً في أسلوبه العذب المبلور.

ألَم يتبيَّن جبران خالداً مُستشفاً فذّاً لكل ما يحصل في وطن الأرز ودنيا العرب؟ ألم يحاول أن يقيم الدليل الساطع على ان النور انبثق من الشرق وان هذه المقولة جاءت، منذ الرومنسية، تعبّر عن اقتناع راسخ، بأن الإنسانية جمعاء تدين بحضارتها للشرق، ومن المرجّح أن تكون أثينا وروما قد أقرّتا بذلك ولو ضمناً!

د. جهاد نعمان

أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه